في بيتــنا صــورة

على جداري صورتان للزعيم: الأولى يملؤها ذلك الظهر العريض في الجاكيت الرصاصي، الذراع المرفوع يلوح، نستحضر الوجه القوي الباسم رغم أننا لا نراه، وفي المواجهة وملتف حول ذلك التكوين المركزي الراسخ: الشعب.الوجوه لنا، للكاميرا، لكننا لا نكاد نتبين ملامحها الفردية، لا يهم، فتأثيرها وقوتها في مجموعها: الشعب – فوق الزعيم وتحته وأمامه وحوله. الشعب: اخترناك من قلب الشعب ...

نشأت في عهده، وكان أول حدث سياسي أعيه هو الوحدة بين مصر وسوريا، فتغير العلم وتغيرت تحية العلم في الصباح المدرسي في آمون الخاصة، زمالك، وسمعت البنات الكبار، يترنمن بـ"بدي عريس أسمر عربي شرط - شرط – شرط من المتحدة طلبي – شرط –". لا أستطيع ان أقول انني أحببته، ولعل هذا في الطفولة ليس واردا، بل أقول أنه كان من ثوابت حياتي، كالأهل والمدرسة والنيل والمصيف والهرم والعيد، موجود لا يساءل وجوده. كنا أحيانا نستشعر قربه، فبيتنا كان يطل تقريبا على نادي الضباط حيث كان الاحتفال السنوي بأعياد الثورة وغيرها. لم نكن نرى المسرح، لكننا نرى الأنوار والسيارات والناس رايحة وجاية، وأذكر ليلة شاهدنا العرض الأول لـ"وطني حبيبي الوطن الأكبر" في التلفزيون وكنت أنظر إلى النافذة وأتخيل عبدالحليم وشادية وكل هؤلاء النجوم يغنون أمام عبدالناصر الآن، الآن وعلى بعد أقل من 200

متر مني!

في السنوات التي تلت وفاته بدأت أعي الجوانب المظلمة للثورة: الاستبداد وحكم العسكر، خميس والبقري، شهدي عطية وفريد حداد، حرب اليمن والانفصال عن سوريا .... أتفهم الأزمات التي مر بها كبار مثقفي وفناني الثورة بعد الهزيمة، حين واجهوا ما وصف بـ"خواء" التجربة. ولكن: هل كان خواء؟ ومن بدء: هل أجهض تنظيم الضباط الأحرار ثورة مدنية كانت وشيكة الحدوث؟ ولو قامت تلك الثورة هل كان سيقدر لها النجاح؟ هل كان بإمكان عبدالناصر أن يرعى الديمقراطية؟ هل وضع ثقته في غير محلها؟ هل؟ هل؟ هل؟

صعب الوصول إلى موقف أتسق فيه مع نفسي، فأنا أشهد ان نشأتي في مصر عبدالناصر أعطتني تعليما ورؤية وقيما وهوية وثقة عشت بها في أنحاء العالم فلم تخنني أبدا، ولكني أكره الاستبداد والسيطرة والتخوين في الحياة العامة والخاصة، وأنا جزء من اليسار المصري المنشغل بتجربة الفترة الناصرية، بتحليلها، وتدويرها، وتفنيدها، وتأويلها، حتى قال لي ابني، وكان في السابعة عشرة: إنكم تحزمون المناقشة وتحملونها معكم فإذا التقيتم في أى مكان تفتحوا اللفة وتدعبسون فيها من جديد.
والتجربة، على أى حال، دامت 18 عاما، ومر عليها اليوم 40 عاما، ولا زالت تشغلنا بتفاصيلها وحذافيرها فنجادل ونحتد ونتفق ونختلف. ومن المفهوم أن يحاول الإنسان أن يصل إلى الرأى الفيصل في موضوع على هذه الدرجة من الأهمية، إلا اننا نجد أنفسنا في زمان وظروف ضاق فيها الوقت ووجب فيها الفعل، فربما كان من المفيد ان نطمئن إلى أننا نتفق على الخطوط العريضة لبعض سياسات عبد الناصر مثل الإصرار على الاستقلال وتقليص النفوذ الأجنبي، الحرص على توازن ميزان المدفوعات، تحقيق الأمن الغذائي والاكتفاء الذاتي، التحديث والتصنيع والنهوض بالتعليم والصحة، تمكين الطبقات العاملة، استعمال وتنمية الطاقات المصرية وبالذات الشابة، دعم الفنون، فصل الدين عن الدولة، الإعلاء من شأن قيم العلم والعدالة الاجتماعية والخدمة العامة، العمل على وحدة الصف العربي، مد أواصر التعاون والصداقة مع بلاد افريقيا وآسيا، بلورة مبادئ الحياد الإيجابي، إدراك ان فلسطين هي البعد الاستراتيجي لمصر وتبني القضية الفلسطينية. هل نتفق على هذه التوجهات مثلا فنستلهمها ونمضي؟

وهل من المناسب الآن، بعد مضي هذا الوقت، أن نستلهم عبد الناصر حقيقة وبعمق – على مستوى الفن؟ أرى فيه بطلا مأساويا، شخصية تراجيدية، حباه الله بقامة واستقامة ووسامة وقبول، بكاريزما متناهية، به نبل وأصالة وزهد وكرم وشموخ وحب للخير وللعدالة وللناس، أحبه الناس حتى العشق فأحبهم – لكنه لم يثق فيهم، وكانت هذه هي العلة القاتلة في شخصيته، العلة التي تتسبب في السقوط التراجيدي للبطل: تكالبت عليه الدنيا من قريب ومن بعيد وكان نصيره هو الشعب فلم يثق بالشعب، فانهزم.

الآن، حين أفكر في الأمر، أرى أنني أحببته وقت الهزيمة، أحببته في خطاب التنحي. أعلم أن هناك من يصفها بالمسرحية، لكني سمعت رنين الصدق في نبراته، وأدركت الفجيعة في كلماته، وعرفت لأول مرة ذلك الحنان الجارف الذي يثيره فينا كبير ذل أو قوي ضعف، والذي يدفعنا إلى الاحتضان والمساندة وتضميد الجرح ثم الترجي: قم، قم وقف وعد إلى نفسك وإلينا وإلى ما كنت عليه.

في الصورة الثانية التي أحتفظ بها على جداري تجد جمال عبدالناصر وحيدا: الكاميرا تركز على وجهه، ذلك الرأس الكبيرالمألوف محني قليلا، العينان تنظران إلى أسفل، يده اليمنى تمسك بمنديل أبيض مطوي يجفف به العرق عن جبينه. وأعتقد أن هذه لمحة من المشاهد الأخيرة في حياته، وقت مؤتمر أيلول الأسود الذي "صالح" فيه ياسر عرفات على الملك حسين. كلما نظرت إليها شعرت بمد مؤلم من الحنان.

وفي النهاية، فالشعور الغالب هو الحزن على فرص ضاعت: حين أرى كم من سموا بناصر وجمال وخالد في البلاد العربية، حين يحكي صديق سوري كيف رفعت الجماهير سيارة الريس على أكتافها في دمشق، حين يستوقفني عجوز في الخليل ويهديني تلفيحة من دكانه لأجل عيون عبدالناصر - أشعر بلوعة يغذيها وضعنا الحالي – والحل؟ الحل في استلهام أفضل وأنبل ما كان في عبدالناصر، وفي شحذ واستنفار أكرم وأبرع ما فينا، وفي التركيز على القناعات المشتركة بيننا، ثم العمل، كل في مجاله، لنتخطى ما نحن فيه قبل فوات الأوان.

جريدة العربي الناصري، القاهرة، ٢٦ سبتمبر ٢٠١٠